بيروت « با ان برت » كما اثبت ذلك حضرة الاب لامنس في كتابهِ عن آثار لبنان (٢٢٢:٢)

فيلوح من كلّ ما سبق انّ بيروت قد حلّت منذ قديم الزمن محلًّا ممتازًا وان اصولها راقية الى الازمنة المظلمة حيث التاريخ كان مختلطاً بخرافات البشر

وان اعتبرتَ ضواحيها الداخلة في مملكتها وجدت ما يؤيد امر قِدَمها . ولاسيما ذلك النُّصب الذي حفرهُ رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم سيسوستريس دلالةً على حلولهِ في سواحل فينيقية وهو اثر جليل في الصخور المشرفة على نهر الكلب حيث تُرى صورتهُ قائمًا بإزاء إلهِ « راع » ساجدًا لهُ وتاريخ الاثر في السنة الرابعة لملكهِ

(لها بقية)

خطر جسيم

او

اللغة العاميَّة

بقلم حضرة الاب انطون صالحاني اليسوعي

فاجأتنا مقالة مستغرَبة ادهشتنا تنبّأ فيها كاتبها بخطر جسيم يتهدّد اللغة العربية الفصيحة . بل قُل العربية عامّةً . لان اللغة الفصيحة ليست اللغة التي يحشوها الكاتب الفاظاً وحشية غير مأنوسة لا يُدرك معناها سوى مَن حفظ الكلام العويص . بل هي اللغة التي تتضمّن الفاظاً تفهمها العامّة وتستعملها سليمةً من كلّ شائبة خطإٍ ومن الاغلاط المخالفة للقواعد العربية في عبارات واضحة وتراكيب غير معقّدة تؤدّي المعنى المُراد

والذي يتهدّدنا بهذا الخطر الغير المنتظر اي اندثار اللغة الفصيحة وتغلُّب العاميَّة

عليها هو احد الكتّاب الذين نجلّهم وقد عوّدنا على ذوق صحيح وكلام فصيح . ولا ندري كيف انتقل بغتةً من حرّ الى قرّ ومن روضةٍ الى برّ فانخدع بالسراب

نشر حضرة الاب الفاضل الخوري مارون غضن مؤلّفاً جمع فيهِ ما كانت جادت بهِ قريحته من المقالات والمقاطيع نثرًا ونظماً وطُبع سابقاً مفرّقاً في المجلّات والجرائد . وضمّ الى هذه المجموعة مقالةً في ٢٦ صفحة تردّد كل صفحة منها النغمة ذاتها . ويظهر ان حضرته ابتكر المقالة مؤخرًا فسمّاها « حياة اللغات وموتها » وتكلّم فيها عن «اللغة العامية» . ونعت هذا المقال بانّه «بحث فلسفيّ لغويّ اجتماعي» . فلو كان حذف اللفظتين «فلسفي اجتماعي» لكان اقرب الى الصواب . لانه ليس في المقالة ما يُشتمُّ منهُ رائحة البحث الفلسفي والاجتماعي . كأنّ الإكثار من النعوت يُكسب البحث اهميّة ليست فيه

قال حضرته : « هذا بحث جديد لا نذكر انّ احدًا خاضهُ قبل الآن مع ما هو عليهِ من خطورة الشأن في نموّ اللغات وتقلّبها وشيخوختها وانسلاخها »

لا ريب في ان البحث عن اللغة العامية هو جديد لم يخطر في بال احد من العرب . لا لخطورة شأنه لكن لتوهّم من الناس في عصرنا . فان حضرتهُ يؤكد لنا انه لا يتمّ الّا بعد بضعة اعصر . فهذا القول ازال خوفنا على العربية الفصيحة وهدأ روعنا . فيمكننا ان نداوم بدون قلق على اتقانها

ثم ان حضرة الكاتب لا يلتفت في بحثه الى تاريخ اللغة ونشوئها وفتوتها وشبابها . بل نظر الى اندثارها وفنائها فقط . ولا يخفى ان البحث عن اللغة يتطلّب من الكاتب ان يتكلّم عن كل اطوار حياتها لتعلم مقدرتها على الثبات في الحياة او ضعفها الآيل بها الى الممات . لكن هذا البحث يقتضي من الكاتب علماً واسعاً في العربية وتاريخها وفي اللغات السامية القريبة منها

ان السبب الذي اوقع حضرة الكاتب في الخطإ هو انه افترض في العربية لغتين الواحدة فصيحة والاخرى عامية . وهذا ليس بصحيح . لان اللغة العربيّة هي واحدة . انّما ما يسمّيه حضرته لغة عامية فليس في الحقيقة الّا الالفاظ والعبارات التي يستعملها الكتّاب والادباء فالعامّة تستعملها ممزوجة بالاغلاط . اما المتأدّبون فيستعملونها مهذّبة

خالية من الخطأ المخالف لقواعد اللغة

وللعامّة ايضاً لهجات في الحركات عند التكلّم تختلف باختلاف البلدان شرقاً وغرباً وقبلةً وشمالاً وجبلاً وسهلاً ومُدناً وقُرًى . ولا تكاد هذه الاختلافات تحصى ولا قاعدة لهذه الاغلاط واللهجات تسير العامة بموجبها . وقد اقرّ بذلك حضرة الكاتب اذ قال (ص١٨٩ في آخرها) : « المراد باللغة العامية اللغة التي يُنطَق بها ليس غير والتي لا آداب لها خلافاً للغة الفصحى » . فهذا دليلٌ واضح على ان اللغة العامية ليست لغة قائمة بذاتها اذ لا قواعد لها ولا تتميز عن اللغة الفصيحة الّا بما يخالطها من الاغلاط (١

وتستعمل العامة الفاظاً اجنبيَّة او الفاظاً لا وجود لها في الامّهات اللغويّة . وذلك مّا لجهلها اللغة وامّا لعدم معرفتها ما يقابل الالفاظ الاجنبيَّة في العربية . وهذا وان كان لا يُستحسن لا يمسّ سلامة اللغة وصحيحها لانهُ يسيرٌ بالنسبة الى غنى اللغة العربية . فهو كيسير من الماء في اناء خمر عتيقة لا يؤثر في طيبها ولا في رياحها . ولا مانع من ان يقتبس ايضاً الكتاب والادباء الالفاظ الاجنبية مع مراعاة بعض الشروط خلافاً لما كتب حضرة صاحب المقالة اذ قال (ص١٩٢) :

---

١) فاذا قيل مثلاً : « اجا هلّق ولاد من المدرسه حظُّن قليل في هالدنيه وقالولو لمعلّمن فكرُن عن هالمجلّه » كان كلاماً عامياً لانه مشحون بالاغلاط . الّا ان جميع الفاظه يستعملها الادباء . فيقولون : جاء في هذا الوقت اولاد من هذه المدرسة حظهم قليل في هذه الدنيا وقالوا لمعلّمهم فكرهم عن هذه المجلة » فيكون كلامهم خالياً من الاغلاط فصيحاً يفهمهُ الجميع حتى صغار التروبين الذين لم يدخلوا مدرسةً ولم يسمعوا بشيءٍ من العلوم

وهكذا القول عن العبارة التي ذكرها حضرة كاتب المقالة تبياناً لمقدرة اللغة العامية على التأثير في القلوب وهي : « فرنسا ما في مثلا بالدنيه كلاّ » فاستنتج ان هذه العبارة العامية اثرت اي تأثير في الحاضرين في كنيسة القديس جرجس المارونية . « فهتفت تلك الجماهير العديدة في وسط الكنيسة هتاف الحماسة والفرح وصفّقوا تصفيقاً ارتجّت لهُ ارجاء تلك الكنيسة ارتجاجاً » وعندنا انهُ لو قيلت هذه العبارة هكذا : « فرنسة ما مثلها في الدنيا كلها » لأحدثت التأثير ذاته لانّ التأثير نتج لا عن اللهجة العامية لكن عن معنى العبارة والظروف . فاذا كانت العبارة المهذبة تؤدي المعنى ذاته وبالالفاظ ذاتها فاذا دفع حضرة الكاتب الى ان يفضّل العبارة المحشوة بالاغلاط على المهذبة . وما الفائدة من ذلك سوى التحريض على ارتكاب الخطإ والحطّ من الآداب . هذا سرّ غامض لا يمكننا فهمه

« ان اللغة العاميَّة يسهل عليها اقتباس الكلمات ايًّا كان مصدرها ولو اجنبيًّا . . . اما اللغة الفصحى فلا وجه لها الى الاغتناء الَّا في ان يتواطأ ارباب اللغة فيها على وضع الفاظ جديدة او نحتها من جذر اللغة نفسه . وانَّ في ذلك من الصعوبة ما فيه »

أفيريد حضرتهُ ان يُلتقط التبر على سطح الارض وان تُقطف الزهور والثمار في الطرقات او ان نصادق على مثل هذه الجمل التي تتلفظ بها بعض الاوانس المتفرنجات وقد طرقت آذاننا «عملتُ له بريزانتيه» وما شاكل . فلإغناء اللغة بالفاظٍ جديدة لمعانٍ وحاجاتٍ حديثة لا بدَّ من الوقت والصبر والحكمة والبحث وتواطؤ الكتَّاب على استعمالها ومصادقة جمعية الآداب او جمهور الادباء . اللهمَّ ان لم يجدوا ما يقابلها في العربية او لم يقدروا على نحت لفظٍ لها من جذر كلمة عربية . امَّا اذا تركنا للعامة إغناء اللغة كما يرتأي حضرتهُ عرَّضنا العربية للفساد والهجنة وكانت الفوضى . هذا ما يرضى بهِ حضرة كاتب المقالة ويحرّض عليهِ ونأباه نحن ونتعرّض لهُ . فهو يسعى لانحطاط اللغة ونحن نسعى لصيانتها وسلامتها وترقيها . ولا ريب في ان الادباء في جميع البلاد العربية يرون رأينا . خلافاً لما قالهُ حضرته اذ كتب (ص ١٨٦) :

« نحن واثقون ان [illegible] يأتون على هذه المقالة من يسبرها على رأينا ويقدرها صحَّة ما جاء فيها . بل قد تدفعهم الحميَّة مناصرتنا في تعزيز اللغة العربية العامية . فيكون لهم ولنا في التاريخ الآتي صفحة جميلة يقرأها الآتون بالشكر والاعجاب » (١

هذا ما نرتاب بهِ كل الارتياب بل نتحقَّق خلافه فتكون مقالته صفحة سوداء يقرأها اهل زماننا بالدهشة والانذهال ولا يذكرها الآتون بعدنا البتة لانها تغوص كالحجر في بحر النسيان

ويا حبَّذا لو كان صاحب المقالة خاض البحث ليبيّن ما يشوب اللغة العامية من الاغلاط عوضاً من ان يستحسنها . وحبذا لو حرّض العامة وخاصَّة طلَّاب العلم على اتقان اللغة وتحسينها وتجنب ما يحطّ من قدرها ويشينها لكان خدم وافاد وكنَّا لهُ من الشاكرين . لكنهُ تكلَّم عن اللغة العامية ليرفع منارها ويعلي شأنها على

١) يذكرنا هذا الكلام بالرجل اليوناني الخامل الذكر الذي احرق سيد دلفوس لينتشر صيتهُ في الآفاق عند الناس

ما فيها من الشوائب فيُضعف الرغائب ويثبط عن العمل ويدفع الى الكسل . سامحهُ الله . لكننا في يقين ان مقالته تكون ضربة في الماء ونفخة في الهواء لا تجديه الّا العناء.

وقد حاول حضرته ببراهين سطحية وذلك باللغة الفصيحة لا العامّية (وكان من الواجب عليه استعمالها ليقرن القول بالفعل) فأجهد فكرهُ ليبيّن اندثار اللغة العربية الفصيحة بتغلُّب اللغة العامية عليها . والعجب كل العجب انهُ يحرّر ذلك وهو يشاهد برأيَ العين والجميع يشاهدون معه النهضة العظيمة التي نهضَتْها العربية من نحو نصف قرن . نرى المدارس تعمُرُ في كل الجهات . وهي غاصّة بالطلّاب . وتُنشأ المجلّات والجرائد العربية وتُنشر الكتب بالمئات والالوف باللغة الفصيحة وموضوعها علم الالهيات والروحيات والفلسفة والآداب العربية والروايات والتاريخ ووصف الارض وطبقاتها وعلم الهيئة والنبات والحيوان والطب وغيرها من العلوم . وذلك ليس في سورية فقط ومصر وبلاد بين النهرين وجزيرة العرب وفلسطين وسائر البلاد العربية بل في الجزائر ايضاً وتونس ومراكش والهند واميركة وهولندة وفرنسة . ونرى عامة الناس من رجال ونساء وشبان وصبايا ينصبّون بتلهّف ولذّة على مطالعة هذه الكتب والنشرات . ونشاهد ما لم نشاهده في ما مضى الاوانس تُنشئ المجلات وتكتب المقالات المستحسنة في اللغة العربية الفصيحة وتؤلف الكتب المفيدة في مواضيع مختلفة . وتخطب في النوادي وتنشر الروايات ويُقبل الجنس اللطيف فضلًا عن الرجال على قراءتها بمسرّة واعجاب (راجع ما كتبهُ البشير في ٢٢ك٢ ١٩٢٥ عن نهضة الادبيات واقبال الجمهور عليها) . أفليس كل ذلك من الادلّة الباهرة على نهضة عظيمة في اللغة العربية تمّت باقلّ من نصف قرن . فبعد هذا المشهد الجميل يمكن لحضرة الكاتب ان يندب القوم لمناصرة اللغة العامية على الفصيحة

وقد اقرّ حضرتهُ بان اللغة تترقى بترقي الشعب اذ قال (ص ١٨٧) :

« ان كل لغة يتكلّم بها الشعب ولو كان من الهمج تكون حيّة بحياة ذلك الشعب العقلية والادبية فتسمو بسموّها وتتلاشى بتلاشيها . واذا ترقّى الشعب مراقي الحضارة ترقّت لغته والعكس بالعكس . وهذا المبدأ لا ينطبق على درجة حياة اللغة فقط بل على نوعها ايضاً . اعني ان حياة اللغة اشبه بمرآة صادقة فيها نرى حياة الشعب وجميع ممتازاتها . فاذا كان ذلك الشعب راقياً في الصناعة

او التجارة او الفنون الجميلة او العلوم كثرت في لغته الالفاظ والتعابير المختصة بتلك الصناعة او التجارة الخ »

هذا ما كتبهُ حضرتهُ

ونحن لا نسلّم بالنتيجة التي استنتجها ولا بوفرة الالفاظ الاجنبيّـة التي تدخل اللغة العربية وفنكر مقدرتها على تحويل اللغة الفصيحة الى عامية . ولا نوافقه ايضاً في ما يدّعي بان التجار والصنائعيين كالنجّارين والحدّادين وصانعي الاحذية ومن يشبههم يؤثرون في تحويل اللغةالعربيّة كما انهم لم يؤثروا في تحويل اللغة الفرنسية من فصيحة الى عامية . ان العامل القدير على ترقية اللغة هم الكتّاب والادباء . فان كثروا وكثُر قرّاؤهم ترقّت اللغة وان قلّوا او انقرضوا تقهقرت اللغة

ثم ان معظم الالفاظ الدخيلة محصور في فئة من الناس يستعملونهـا لحاجاتهم الخصوصية (١ في الصناعة او التجارة او التصوير او الطبّ الخ . ولا ننكر ان بعض هذه الالفاظ تدخل اللغة الفصيحة لكن دون ان تؤثر في فصاحتها او تحوّلهـا الى عامية . فهي كالطعام الذي تتناولهُ ويصير جزءاً من جسدنا

هاتِ الآن نفحص ما ورد به حضرة الكاتب ليثبت ان اللغة العربية الفصيحة آئلة الى الفناء لا محالة . قال حضرته (ص ١٨٧) :

« ان كل لغة على وجه الارض ماشية ضرورةً الى انقضاء مهما بلغت من المجد والكمال . وذلك لان كلّ حيّ يُولد فينمو فيبلغ اشدّه فشبابه ثم يضعف فيهرم فيموت . تلك هي سُنّة الله في كلّ حيّ ولا يشذّ عنها الّا ما كان غير حيّ كالجماد مثلاً »

كأنّ الجماد لا يفنى ايضاً اذ يتحوّل بالعوامل الطبيعيّة الى فُتات وحُتات ودُقاق . وقال ايضاً (ص ١٨٨) : « لا بدّ لكل لغة من ان تموت ولو بلغت اسمى درجـات

١) صرّح بهذه الحقيقة العلامة انطوان غرينوار المعلّم في المدرسة الملكية في مدينة لياج من اعمال بلجيكة في كتابهِ عن اللغات قال :

Beaucoup de ces expressions ne sortent pas du milieu restreint dans lequel elles ont pris naissance. Cependant un certain nombre d'entre elles passent dans la langue commune. Ce dernier phénomène s'est produit de tout temps, mais dans une mesure moindre qu'aujourd'hui (ANT. GRÉGOIRE : *Petit Traité de Linguistique*, p. 106)

الكمال . فهذا لأنها حية والموت متحتم على كلّ حيّ » . فلماذا لم يقل ايضاً عن اللغة العامية التي هي حية انها آئلة الى الاندثار والفناء كالفصيحة . ولكن لنسمع ما فسّر به حضرته قوله ان كل لغة سائرة الى الفناء قال (ص١٨٧) : « معناه ان كل لغة تتحوّل شيئاً فشيئاً من صورتها الاصليّة الى صورة بعيدة عنها بحيث يسع اللغويين ان يعدّوا هاتين الصورتين لغتين مختلفتين لا لغة واحدة رغم ثبوت علاقة الاشتقاق بينهما » . فليبيّن حضرتهُ بالامثلة ما يؤكده هو وننكره نحن اي ان صورة اللغة العربية العامية هي بعيدة عن صورة اللغة الفصيحة بحيث تُعتبر هاتان الصورتان لغتين مختلفتين . فهذا مما لا يمكنهُ تأييده مهما اجهد نفسه

ثم ان المبدأ الذي قرّرهُ بقوله «ان اللغة آئلة الى الفناء لانه متحتّم على كلّ حيّ ان يموت» . هو مبدأ لا يصدق في اللغات لانه يفترض ان اللغات تحيا كالاجسام الآلية وهذا ليس صحيحاً . فهل يمكن للشيخ الهرم ان يعود شاباً . قال الشاعر :

اترجو ان تكون وانت شيخٌ كما قد كنتَ ايامَ الشبابِ
لقد غرّتك نفسكَ ليس ثوبٌ عتيقٌ كالجديد من الثيابِ

اما اللغة فتراها غالباً بعد انحطاطها لإهمال الآداب وموت الادباء تنهض من كبوتها وتنتعش بعد ضعفها وتترقى بترقّي الحضارة والعلوم . فاللغة لا تموت كما يموت النبات والحيوان بل بموت الشعب الذي ينطق بها . فاذا بقي الشعب العربي في الحياة تحيا لغته ويتجدّد شبابها ولا تنحطّ بل تترقّى بترقي آدابه . واذا انقرض الشعب العربي لا سمح الله وابتلعهُ غيرهُ من الشعوب تموت لغته العربية . كما حدث في بر الاناضول حيث ابتلع الترك شعبَي الارمن واليونان في غابر الزمان فغنيت او كادت لغة هذين الشعبين في تلك البلاد واخذت مكانها اللغة التركية . وهذا ما حدث ايضاً في البلاد السورية فانهُ لمّا كثر العرب الفاتحون لها وقويت شوكتهم وصارت السلطة اليهم ابادوا اللغة اليونانيّة في المدن السورية واللغة السريانيّة في القرى

فمن المقرر اذاً ان اللغات لا تموت الا بانقراض الشعوب . فما دام الشعب حيّاً فلغتهُ هي ابداً شابّة . هذا ما قرّرهُ الكاتب البلجكي المشار اليه (١

---

1)Il ne viendra plus à l'esprit de personne, de considérer les langues

ثم ان رأي حضرة الكاتب مردود لسبب آخر. فاذ كانت اللغة في نشوئها لا يمكن القول انها تتحول لكن لا من الكمال الى الانحطاط بل من النقص الى الكمال. امّا اذا كانت بلغت اشدّها اي كمالها فقلّما يطرأ عليها تغيّر او قلّما يؤثر فيها. كما ان الطفل المولود حديثاً تتغيّر هيئتهُ كلّما ترعرع حتى لا نكاد نعرف انهُ هو الذي نظرناه رضيعاً ولكن متى صار كهلاً فهما تغيّرت ملامحهُ يُعرف حالاً انهُ هو هو ولو صار الى الشيخوخة. هكذا اللغات فانها متى ترقّت وبلغت درجة تُذكر من الكمال وأُثبتت في التآليف والكتب كالعربية والافرنسية والانكليزية والالمانية والاسبانية وغيرها فهيا طرأ عليها من التغيرات الجزئية والافرادية التي لا بدّ منهـا بسبب ترقي العلوم والفنون لا يمكن القول انها تتحوّل وتؤول الى الفناء. ولنا مثل في اللغة الافرنسية فان عامـة الشعب الفرنسي لا يستطيع اليوم ان يفهم الكتب التي نُشرت بلغته منذ خمسمائة سنة. ولكن بعد ان ترقّت لغته وثبتت بفضل المدارس والكتب وانتشار الآداب في عامّة الشعب. وقد ساعد على ذلك فنّ الطباعة الحديثة التي لم تسق الـ ١٤٤٠ وتفوق الحكومة ومتوظفيها فلم يعد يحدث في اللغة تغيّر الّا ما ندر وذلك لاسباب عمومية وسياسية وبلاغية وحربية. وهكذا القول عن الالمانية. فالباحثون في ايامنا يفهمون ما كتبهُ من نحو ثلثمائة سنة باسكال وفينيلون وموليير وبوسويه ومسيليون ولافونتين وكورنيل وراسين ولابرويار وغيرهم كثيرون

وهكذا القول عن اللغة الالمانية فانهُ من مائة سنة لم يكن لتلك البلاد الواسعة الارجاء لغة واحدة ولم يكن اهالي سكسونية وويستفالية وبافارية يفهمون بعضهم بعضاً لان الآداب لم تكن بعد عمّت في تلك الاقطار. ولكن بعد ان انتشرت (وكان بدء انتشارها ترجمة لوثيروس للكتاب المقدس والبروتستان مجمعون على قراءته) واخذ الادباء والكتّاب يضبطون اللغة ويحقّقونها بفتح المدارس ونشر الكتب والجرائد والمجلّات تحقّقت اللغة الالمانية وثبتت وتحلّت بالفصاحة وعمّت البلاد

---

comme des organismes, analogues à des végétaux, à des êtres apparaissant un jour à l'existence, poussant tantôt un organe, tantôt un autre, dépérissant en partie ou en totalité et finissant par succomber. (id. p. 95)

الالمانية فيفهمها الجميع . ولا خطر عليها ان تعود الى اللغة العامية

لا بل متى عمّت اللغة الفصيحة في الأمة فانها تبيد كل اللغات الخصوصية وتميتها سواء كان في فرنسة ام في المانية ام في غيرهما من الممالك . وقد اثبت ذلك الكاتب البلجكي الذي اشرنا اليه (١)

ولنا مثال آخر في اللغة العربية وهي من اثبت اللغات فانها في العصر الجاهلي كانت تختلف معاني كثير من الفاظها باختلاف القبائل . ومن هنا اتى تعدُّد الفاظ الاضداد والمرادفات والمعاني المتباينة في اللفظة ذاتها والغير المتفقة مع معنى اللفظة الاصلي الامرُ الذي يحيّرنا لدى مطالعتنا الأمهات اللغوية . ولكن بعد ان كُتب القرآن (والمسلمون دائبون في تلاوته في كل الاقطار) وبعد ان اخذ العلماء يفسّرونهُ وانتشرت الكتب في الحديث . وكتب كثيرون في التاريخ ووصف الارض والطبّ والرياضيات وغيرها من العلوم وضُبطت قواعد العربية وانشئت المدارس وشاعت المخطوطات ثبتت العربية كما يثبت البناء المشيَّد بالحجارة والكلس . فنفهم اليوم كتباً أُلفت من الف ومائتي سنة . وانشاء هذه المؤلفات لا يختلف عن انشاء كتبة عصرنا فيكتب ادباؤنا اليوم كما كتب العرب لفائدة العامة في جزيرة العرب والبلاد الشامية وبلاد بين النهرين وفارس ومصر وتونس والجزائر ومراكش وطرابلس الغرب . ويتكلم ادباؤنا كما يتكلّم اولئك مع اختلاف يسير في اللهجة واستعمال

1) Malgré le regain de sympathies dont profitent certains patois, on constate qu'ils sont en train de disparaître devant l'influence du français officiel et littéraire. Cette décadence constitue encore un trait commun aux dialectes ; dans tout pays civilisé, avons-nous dit, les patois succombent tôt ou tard. On les délaisse de plus en plus ; les générations nouvelles les dédaignent ; le peuple seul et les populations écartées les conservent, jusqu'à ce qu'ils cèdent la place à une langue unique. De nos jours, cette substitution s'effectue avec une rapidité beaucoup plus grande qu'autrefois : en effet, les relations de province à province deviennent plus faciles ; l'instruction se répand davantage, grâce à l'école, aux livres, à la caserne, et surtout aux journaux populaires. (p. 102)

بعض الالفاظ الخاصة وهذا لا بدّ منهُ في اقطار تمتدُّ من بلاد فارس الى صيد مصر ومن عُمان الى الاندلس. فاذا قام اليوم من يتكهن بانحطاط العربية الفصيحة واندثارها وتغلُّب اللغة العامية عليها لا احد يلتفت اليهِ او يُصغي الى اقواله بل يهزُّ عطفَيهِ متبسماً ويقول: سرابٌ بِرَيّة واضمحلّ

ولكن اسمع يا رعاك الله البراهين التي يدعم بها حضرة الكاتب مراده. قال ابانه الله:

« ها نحن نثبت ذلك بأجلى البراهين. قلنا ان حياة اللغة تتكيَّف بتكيُّف حياة الشعب الناطق بها. فانّ هذه الحياة الشعبية في تغير دائم لا ثبات لهُ. وانّ كلّ شعب يتقدّم او يتقهقر في الحضارة ويُكثر او يقلّ من علاقاتهِ بسائر الشعوب ويتشدَّد بالسلم او تتجلّى قواهُ بالحروب من مثل الحرب الكونيّة الاخيرة. وهنالك ايضاً الوف من العوامل التي تحدث تغيراً مستمراً في ضروب احوالهِ. فضلاً عن انَّ افراد الشعب تتغير ايضاً على تتابع الاجيال وعلى هذا التغير تتغيَّر الاعضاء الصوتية فينتج عنهُ تغيُّر تدريجي في التلفظ بلسان الشعب. نعم ان كل جزء من هذه التغيرات الطارئة على اللغة الاصلية هو وحدهُ وبذاته لا يكاد يُحسّب لكن تواصل هذه التغيرات الكثيرة ولو ببطء يُلبس اللغة الاصليّة بعد بضعة اعصر صورة جديدة ينتج عنها تبيين [illegible] »

نسمع بجملة ولا نرى طحناً. فاي تغيّر احدثت في اللغة الفرنسية ام الالمانيّة ام العربية الحرب الكونيّة وحرب سنة السبعين وحوادث عديدة طرأت على العالم. واي برهان جليّ يُستنتج من كل ذلك لتبيان تغلُّب اللغة العامية على الفصيحة. وما هي الوف العوامل وكثرة الحوادث المؤثرة في تغير اللغة. فقل لي بحقك ما هذه التغيرات العديدة التي يحدثها السلم او الحرب او هل يؤثر اختلاف الاعضاء والاوتار الصوتية في كيان الالفاظ. واذا تغيَّرت لهجة النطق بالكلمة هل يتغيَّر جوهر الكلمة او معناها

فهذه اللغة الفرنسية قد مرّ على الشعب الذي يتكلّم بها احوال وحوادث مختلفة لم تمرّ على احد من الشعوب منذ ثلاثمائة سنة فلا احد يقول ان اللغة الفرنسية انحطَّت وتحوَّلت الى لغة عامية بل الجميع يقولون انها ترقّت وتحسَّنت رغماً عمَّا امتزج بها وهضمتهُ من الالفاظ الدخيلة من لغات مختلفة لحاجات علمية وفنية وتجارية وحربية. وهكذا القول عن العربية بعد ان مرّ على ترقيها الف وثمانمائة سنة

ان الذي خدع حضرة الكاتب هو استعمال العامة مع توالي الزمان الفاظاً دخيلة. فظنّ ان الدخيل يجعل اللغة الفصيحة عامية. وهذا مما لا نسلّم به. فهذه اللغة الفرنسية مثلاً فانها لغة فصيحة لها قواعدها وشواذّها وكتّابها ومؤلفاتها وهي من اوضح وارقى اللغات. ومع ذلك لا تأنف من اقتباس الفاظ جديدة من اللغات اليونانيّة واللاتينيّة والانكليزية والالمانيّة والايطاليّة ومن العربيّة ايضاً يرضى بها الادباء وتُصادق على استعمالها جمعية الآداب ولا احد يقول ان اللغة الفرنسية تحوّلت لهذا السبب الى عامية. وهكذا القول عن العربية. ولا نعني بالدخيل كل لفظة اجنبيّة تستعملها العامة لجهلها ما يقابلها في العربية كما فعلت العامة في وقت الحرب عندما استعملوا اللفظة «دُبّيه» (dépôt) للمكان الذي جمعوا فيه من يُساق الى المعسكر (١ بل نعني الالفاظ المحتاجة اليها اللغة ويستعملها الادباء بتواطؤ لانهم لم يجدوا ما يقابلها في العربية او لم يقدروا على نحت لفظة لها من جذر لفظة عربية تؤدّي معناها. فهؤلاء العلماء المشهورون بتآليفهم الذين كتبوا في العربية من عصور عديدة قد ادخلوا في اللغة الفصيحة الفاظاً عديدة اقتبسوها من اليونانية كاسطرلاب. ومن السريانية كقرقور لنوع من السفن. ومن الفارسية كعسكر وفرسخ الخ. فلم يقم احد في زمانهم او بعدهم ليلومهم ويتهمهم بانهم جعلوا اللغة عامّية

وكأنّ حضرة الكاتب يعتقد ان الالفاظ الاجنبيّة تدخل في العربية كل سنة بالمئات والالوف فتحوّل اللغة العربية من هيئة الى هيئة. فهذا قد مضى على الشعب العربي اكثر من خمسين سنة يعيش الفرنج بين ظهرانيهم وينتقل كثير منهم الى البلاد الأوربية والاميركية. فليُفحص لنا حضرته المئات من الالفاظ الاجنبيّة التي ادخلوها في العربية فأثرت في فصاحة اللغة. فهذه مجلات المقتطف والهلال والمشرق وجرائد الاهرام والمقطّم ولسان الحال والبشير وغيرها من المجلات والجرائد المعتبرة والمنتشرة في البلاد العربية والتي يطالعها الجميع من متأدبين وعامّة. فان محرري هذه النشرات يتنازلون جميع المواضيع التي يبحث فيها العلماء الاوربيون على اختلاف موادّها ويكتبون عنها. فينشئون بالعربية الفصيحة مقالات ضافية الذيول ويؤلفون الكتب المستحسنة. فلا تستعصي عليهم الالفاظ العربية لتأدية ما يخالج عقولهم من المعاني في

(١) وقد ماتت هذه اللفظة ولم تحيَ والادباء يستعيضون عنها باللفظة العربية «المستودَع»

كافة العلوم القديمة والحديثة من علم الفلسفة والالهيات الى علم الهيئة ووصف الارض والنبات والحيوان. وقد يضطرون نادرًا الى اقتباس بعض الالفاظ الاجنبية فيكسونها ثوباً عربيًّا ويخضعونها لقواعد اللغة العربية او يرصعونها في انشائهم كفصّ ياقوت في خاتم ذهب فلم يعترض احد ليقول ان لغتهم عامية او ان الالفاظ الدخيلة حوّلت لغتهم الفصيحة الى عامية

ولدينا ملاحظة نُبديها لحضرة كاتب المقالة وهي انه ناقض ذاته بذاته فيما كتب. فقد قال (في الصفحه ١٨٦ السطر ١٣) « لا بدّ لكلّ لغة عاميـة من ان تتحوّل الى لغة فصيحة بشرط ان يبلغ الشعب الناطق بها درجة من التقدم راقية » . وقال (في السطر ١٢ من الصفحة ١٨٢) « تزول اللغة الفصحى وترتقي اللغة العامية الى درجة لغة فصيحة» . وقال (في السطر ١٥ من الصفحة ١٨٦) « ان اللغـة الفصحى تترقّى ايضاً بترقي التمدن لكنّها لا تستطيع مجاراة اللغة العامية في ذلك الترقي» . فقل لي ناشدتك الله يا حضرة الكاتب اين يبقي اثر للغة العامية بعد ان ترقت الى لغة فصيحة . وكيف يمكنها بعد زوالها كعامية اذ انها اضحت فصيحة ان تجاري اللغة الفصحى بل تتغلب عليها . ان حضرة مبتكر المقالة لا يدرك تمامًا ما هـ ذا هي اللغة الفصيحة ولا ما هي اللغة الفصحى (ان كان حضرته يعـ من الفصـ . ومن هنا استدرج عقله ومغالطته . فكان يلزمه بادئ بدء ان يحدّد ويبيّن ما هي اللغة العاميّة والفصيحة والفصحى . فلو كان حدّدها في عقله وفهم ماهيتها لما كان اقدم على كتابة ما كتب . لكنه اقتبس بعض افكار كاشباح لاحت لهُ في غلس الظلام فجمعها وألّفها كما يرسم المصوّر المازح الماجن فيضمّ رأس رجل ذي لحية الى عنق فرس ويكسو بالريش الاعضاء المختلفة وينهي الصورة بجسم سمكة فيكون المجموع صورة مسخ

وما قولك في ما كتبهُ حضرة المنتصر للغة العامية اذ قال (ص ٢١١) :

« لو فرضنا وهذا محال أن هبَّ جميع ادباء العصر لمقاومة قضيّتنا فنقول ولا نبالغ ان هذه القضية في حد ذاتها لصائبة وان دخولها في حيز الوجود سيلاقي امام الشعب اللبناني اي ٩٥ من المائة فيه اعظم رواج واشدّ فلاح»

« ونضيف على ذلك ونقول اننا في غير حاجة الى من يؤيّد رأينا هذا فانّ في هذه البلاد كما قلنا آلافًا من ابناء لبنان يتصوّرون جوعًا الى آداب راقية قريبة المنال عذبة اللفظ مكتوبة بلغتهم وجميع هذه الشروط لا تجتمع الا في اللغة العامية التي نحن اول انصارها لا بالكلام الفارغ بل بامتن البراهين التاريخية واللغوية والفلسفية »

ينتصب حضرته لمحاربة ادباء العصر (١ ولا يرتاب من نيل الظفر على الجميع . ولكن كم من غازٍ أمّل الكسب والمجد ولم يجد الّا الخسارة واللحد كقول الاخطل :

ويا ربَّ غازٍ وهو يُرجى إيابُهُ وسوفَ بلاقي دونَ أوبتهِ شُغلاً

وما الطف التهمة التي يتهم بها الشعب اللبناني . لكن نسأله متى تحقّق حضرته ان الشعب اللبناني لا يفهم الّا ما يُكتب باللغة العامية . فهذا الانجيل الشريف الذي يُتلى يوميًا على مسامع الشعب فيفهمون كل معانيهِ أباللغة العاميّة كُتب ام باللغة الفصيحة اي المهذّبة . وهكذا القول عن كل الكتب التي طُبعت الى الآن لمنفعة الشعب وانتشرت في جميع الاقطار . وهذه مقالته عن اللغة العامية ألّلستاذين كتبها ام للعامة ايضاً لتفهمها وتعمل بموجبها وتشكر المنتصر لها؟ . فتراهُ كتبها باللغة الفصيحة والفصحى فلماذا ينادي بانّ العامة لا تفهمها ؟

فاذا كان انخدع حضرته بكتاب فيانوس المكتوب باللغة العامية فليعلم ان هذا الكتاب وُضع لغاية خصوصية توخّاها مؤلفه فأفاد وأجاد . اما صاحبنا كاتب المقالة عن اللغة العامية فانه قصد تعميم المبدإ وتوسيع الطريق والزام الجميع على السلوك فيهِ فاضرّ واساء . فلو كان اقتصر على اتباع طريقة فيانوس ووضع بعض الكتب باللغة العامية ليعلّم الآداب او ليصف الاخلاق بطريقة هزلية لَمَا كنّا تعرّضنا لهُ بل كنا قرّظنا كتابه ومدحناه . ولا يخفى احدًا ان اللغة العامية لا تليق بكل المواضيع فان معظمها يتطلّب الهيبة والوقار

فاذا كان يرغب حضرتهُ ان يقيت المتضوّرين جوعاً الى الآداب الراقية فليقدّم لهم خبز الحنطة لا الزوان وليكتب لهم باللغة المهذبة مقالات وروايات لذيذة كالتي حرّرها في السنين الماضية في رسالة قاب يسوع فيتهافتون على قراءتها ولا تهافت الجياع على الطعام اللذيذ . والسلام على من اتبع الهدى

---

١) « لقد كان من نصيبنا أن شهدنا تدرّج الارتقاء الادبي في هذا القطر كأننا في مشهد كبير وجماعة العلماء والادباء يرون امامنا ما ترجموهُ وألّفوه وحرّروه كتباً ورسائل ومقالات فاذا هي مثل هرم كبير رأسهُ في الحضيض وقاعدتهُ في الاوج واسعة متينة تتناول كل موضوع نظري وعملي من اعلى مذاهب الفلسفة الى ما يختصّ بزرع الحبوب وتربية المواشي» (المقتطف العدد الاول من السنة ١٩٢٥ الصفحة ٣٩) فحضرة الخوري مارون غصن يريد ان ينزل بنا من الاوج الى الحضيض . وهذا عمّا لا يقدر عليهِ ولن يتسنى لهُ